

نظرية النشوء والارتقاء (نظرية التطور)

نطلق صفة التطور أو التكامل على كل اتجاه من البسيط إلى المركب، ومن الفوضى إلى النظام. وقد تم إطلاق اسم "الداروينية" أولاً على النظرية التي كانت تبحث عن منشأ وتكوين الأحياء. ثم أطلق عليها اسم "التطور Evolution" وهي كلمة لاتينية الأصل تعني شيئاً أو جسماً له طبقات متعددة، وتفتح كل طبقة بشكل متعاقب الواحدة منها إثر الأخرى، وفتح أستاره للنفوذ إلى داخله. وفي الاستعمال اليومي لكلمة "التطور" نلاحظ أنه علاوة على ضمها لمعاني التكامل التدريجي والارتقاء والنضج، فهي لا تشير فقط إلى الداروينية، بل تستعمل أيضاً للتعبير عن التغيرات الحاصلة في الأحياء نتيجة للطفرات والتغيرات والاستحالات. أي أننا نعني بالتطور جميع الأفكار والطروحات الداروينية القديمة منها والحديثة.

كان هناك في الحقيقة من طرح ادعاءات مشابهة لهذا قبل دارون، منهم "كانط" و"باكون" و"هيجل" حسب رأي البعض. بل إن بعضهم أدرج مع الأسف العالم والشاعر المتصوف "إبراهيم حقي" (الوفاة ١٧٨٠م) ضمن هؤلاء. بينما ذكر هذا العالم المتصوف أن الإنسان يحتل الذروة بين الأحياء. وهو يعتقد أن هناك مراحل تنقية واصطفاء واستحالة بين المخلوقات التي خلقها الله تعالى من العناصر الأربعة (الماء والهواء والنار والتراب)، وأن المعادن هي المرحلة الأولى ثم تأتي بعدها النباتات ثم الحيوانات ثم الإنسان، وأن هناك بين كل مرحلتين مرحلة وسطى، وأن المرحلة الوسطى بين

الإنسان والحيوان هي القروء التي هي أكثر الحيوانات قرباً وشبهاً بالإنسان. وفي الطبعة القديمة من كتابه "معرفت نامة" (ص ١٩) يتكلم عن مثل هذه المراحل التكاملية، ولكنه بعد صفحتين يدخل في موضوع الخلق المباشر مستنداً إلى المعاني الظاهرة في هذا الخصوص والواردة في الآيات القرآنية وفي الأحاديث الشريفة وليس إلى أي نظرية أو أي ادعاء آخر، فيقول: إن الله جل جلاله انتقى آدم من الطين اللازب للأرض وهياًه (أي عمل خليطاً ومعجوناً من حساء بروتيني) ثم خلق الإنسان منه.

وقد يبدو أن هناك فرقاً بين هذين الطرحين وتناقضاً عند هذا العالم في هذا الموضوع، ولكن لا يوجد في الحقيقة أي فرق أو أي تناقض، ذلك لأنه كان يعني في طرحه الأوّل ما ذكره بعض من عاشوا قبله بعدة قرون (من أمثال ابن تركي الاصفهاني) وما ذكره بعض المتصوفة وهو التكامل الحاصل في العقل والروح. أي أن الموجودات على سطح الأرض تعرض تدرجاً من ناحية الملكات العقلية والقلبية. وهو تقويم يشترك فيه الحكماء المسلمون، وحسب هذا التقويم فهناك تنازل قوسي من السماء حتى الأرض (أي خط بياني تنازلي)، وفي الأرض هناك قوس تصاعدي يبدأ من الجماد إلى النبات والحيوان حتى ينتهي بالإنسان. أي كان من المستحيل أن يطرح أحد قبل ثلاثة قرون أو خمسة أو عشرة قرون نظرية تطويرية تستند إلى الكروموزومات والجينات والطفرة. لذا فإن ما جاء في ص ١٩ من كتاب إبراهيم حقي هو إشارة وتقويم للتكامل العقلي - الروحي عند الموجودات، لذا نراه عندما يتحدث عن عملية الخلق بعد صفحتين يشير صراحة وبوضوح إلى تفوق الإنسان وسموه ويقول: "لقد أوجد الله تعالى من نوره جوهرًا عظيمًا وأنشأ منه الكون بأجمعه، وأظهره مرتباً ومتدرجاً، ويطلق على هذا الجوهر الجوهر الأولي أو النور المحمدي أو اللوح المحفوظ أو العقل الكلي أو العقل النسبي".

إن اعتبار ما قاله العالم إبراهيم حقي حول حقيقة تكامل الوجود وحول ما ذكره حول الروح والمادة، كل على حدة، وتصور وجود علاقة لما ذكره في هذا الخصوص مع نظرية التطور البيولوجي التي طرحت بعده بعد نصف قرن من قبل لامارك ودارون سيؤلم روح هذا الولي الكبير. وعلى الرغم من هذه الحقيقة نرى أن بعضهم -غفر الله لهم- وعلى رأسهم جمال الدين سرور روناق أوغلو وضياء الدين فخري فندق أوغلو، وجواد دورصون أوغلو الأضرومي المشهور يدعون أن هذا الولي الكبير قال بنظرية التطور البيولوجي، وكان من دعاة وأنصارها.

وعلى الرغم من الآراء المختلفة -التي ذكرنا بعضها منها- فلم يكن هناك من طرح فكرة التطور البيولوجي قبل دارون أو نظرية الاستحالة (Transformation) قبل دارون سوى العالم الفرنسي "لامارك"، فقد نشر كتابه (فلسفة علم الحيوان) الذي شرح فيه نظريته في التطور في سنة ميلاد دارون (١٨٠٩م). واشتهر هذا الكتاب عندما بلغ دارون سن القراءة.

يمكن ذكر ثلاثة عوامل سادت دارون لطرح نظريته المعروفة. الأول هو قيام القس الانكليزي "مالتوس" بنشر رسالته في إنكلترا في عهد كان فيه الفقر سائداً. كان مالتوس يرى أن زيادة السكان يُعدُّ عاملاً من عوامل الفقر، وكان يعارض القانون الحكومي الذي كان يقضي بقيام الحكومة بمساعدة الفقراء من خزينة الدولة. وقام بنشر كتابه (تجربة حول السكان) عام ١٧٩٨م ذكر فيه أن السكان على سطح الأرض يتزايدون بنسبة هندسية، بينما لا تتزايد مصادر الغذاء إلا بنسبة عددية،^(١) وذلك بسبب محدودية الأراضي القابلة للزراعة، وأنه لولا وقوع أنواع عديدة من الكوارث الطبيعية كالسيول والآفات والأمراض المعدية لما كان بالإمكان توفير الغذاء

(١) الزيادة الهندسية هي الزيادة كما يأتي مثلاً: س، ٢، ٣، ٤، ٥... الخ (كمثال رقمي: ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤... الخ) الزيادة العددية هي الزيادة كما يأتي مثلاً: س، ٢، ٣، ٤، ٥... الخ (كمثال رقمي: ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠، ١٢... الخ) هنا س= ٢. (المترجم)

للسكان المتزايدين. وكان "مالتوس" يدعو الحكومة - حسب فكرته هذه- إلى إلغاء قانون مساعدة الفقراء. أما دارون فقد استخرج من نظرية مالتوس -التي قدمت لغاية اقتصادية صرفة- نتائج علمية، حيث استند إليها -كما سنرى فيما بعد- في وضع نظريته في الانتخاب الطبيعي (Natural selection).

والعامل المؤثر الثاني على دارون كان كتاب (حول القانون الذي ينظم ظهور الأنواع الجديدة) لمؤلفه "ألفريد رسل والاس" الذي كان يقوم بأبحاثه في شواطئ أمريكا الجنوبية وفي جزر ملايا في المحيط الأطلسي. وفي الرسالة الطويلة جداً -والتي كانت بمثابة كتاب- التي بعثها والاس إلى دارون أشار إلى أن المخلوقات التي تبدي تكيفاً مع بيئتها هي التي تستطيع إدامة حياتها، أي كان يشير إلى وجود صراع بين الأحياء في الطبيعة. وعندما طرح دارون نظريته المعروفة كان يستند إلى مثل هذه الطروحات.

والعامل الثالث المهم الذي أثر على دارون كان بعض العلماء السابقين الذين تناولوا هذا الموضوع وذكروا حوله آراءهم مهما كانت قيمة تلك الآراء، منهم "لامارك" الذي يقول عنه السيد "عدنان آدي وار" (كان شخصاً بسيطاً وكحاطب ليل يجمع بعض المسائل بسرعة ودون تمحيص وبشكل لا يليق بجرمة العلم). بينما يقال أن دارون كان يجمع الآراء والأفكار من مختلف المصادر ويرتبها بشكل أكثر حيوية وأكثر قرباً من الطريقة العلمية. غير أنه سيئين مما سنذكره فيما بعد من بعض الحقائق بأن جميع ادعاءات دارون وطريقة جمعه المعلومات وتصنيفها وتقديمها بعيدة عن الطريقة العلمية بفراخ عديدة.

الأسس الأربعة الرئيسية التي تستند إليها "الداروينية"

على ضوء بعض أوجه التشابه الموجودة بين المخلوقات وفي ضوء التأثيرات التي تلقاها من العلماء قام دارون بتأسيس نظريته على هذه الأسس الأربعة الرئيسية:

تقوم الظروف الخارجية، وأحياناً التأثيرات الداخلية بإجراء تأثير على الكائنات الحية، حيث تؤدي هذه التأثيرات إلى تغييرات كبيرة أو صغيرة فيها. تلعب هذه التغيرات بدرجة ما دوراً مفيداً للأحياء بشكل أو آخر. تنتقل هذه التغيرات الطفيفة عن طريق الوراثة إلى الأجيال والأنسال القادمة.

الانتخاب الطبيعي: نتيجة لشحة الغذاء بسبب التزايد السكاني فإن الأحياء تضطر للتصارع فيما بينها. وحياة الأحياء عبارة عن هذا الصراع. والطرف القوي في هذا الصراع هو الذي يبقى ويستمر في الحياة، أما الضعفاء والمغلوبون فمصيرهم هو الزوال حتماً^(١). كما أن المصائب والبلايا ستبديد الضعفاء وعديمي المقاومة، فلا يبقى على وجه الأرض سوى الأنواع

(١) المقصود بالقوة في الأحياء -حسب نظرية التطور- ليست القوة الجسدية، بل درجة تكيف أي حي من الأحياء للظروف التي يعيش فيها ذلك الحي، فمثلاً إن البعوض أكثر الأحياء تكيفاً وتلاؤماً لبيئة المستنقعات من العديد من الأحياء الأقوى منها. (المترجم)

القوية. وتستند هذه الفكرة إلى الرأي الاقتصادي لمانتوس والذي لخصناه قبل قليل. والآن لنأخذ هذه الأسس الأربعة للداروينية ونناقشها بالتفصيل:

١- دعوى التطور، والتشابه الموجود بين الأحياء

تنطلق الداروينية من المشاهدة والتشابه الموجود في الطبيعة. فهي ترى أن بعض الأعضاء الضامرة الموجودة في بعض الأحياء الراقية هي آثار عن أسلاف بدائية كانت مفيدة لها، ولكنها أصبحت دون فائدة بعد قطع هذه الأحياء لمراحل تطورية معينة، ولكون هذه الأعضاء لا تفيد في هذه المرحلة الجديدة من التطور لذلك الكائن لذا بقيت كأعضاء ضامرة وأثرية. فمثلاً يقول دارون إن وجود الشعر في جسم الإنسان دليل على أنه ورث هذا الشعر من الشعر الموجود في أجساد الثدييات، وفي أثناء المراحل التطورية التي مر منها الإنسان تساقط القسم الأكبر من هذا الشعر ولم يبق إلا في مناطق معينة... فلماذا؟

مثل هذه الادعاءات لدارون لا تستند إلى برهان حقيقي. لأن وجود الوجه والعين والأذن في الإنسان لا يشكل دليلاً على أنه تطور من القرد. كما لا يشكل وجود هذه الأعضاء في بعض الأحياء دليلاً على أن بعضها قد تطور من بعض. لأن هناك تشابهاً كثيراً بين العديد من الكائنات الحية في العالم. لأن جميع هذه الكائنات الحية تستند إلى عناصر رئيسية أربعة هي: النتروجين، الكربون، الأوكسجين، والهيدروجين. كما أن الإنسان والحيوان يتغذون أغذية مشتركة. والإنسان خاصة يتغذى من الأغذية نفسها، ومع ذلك فإن جميع أنواع الموجودات، وكذلك أفراد الإنسان يبدوون في نواح عديدة فروقاً كبيرة فيما بينهم.

إن التشابه في المظهر الخارجي أو في البنية الداخلية لا توجب تطور الأحياء بعضها من بعض. وعلى الرغم من النشأة المشتركة، فإن الفروق الموجودة بين

الكائنات تُظهر أن الغاية من الخلق ووظيفة ذلك الكائن وموقعه يأتي في المقدمة، وأن البنية المادية تنظم على هذا الأساس. فلا يمكن بناء بناية عشوائية أو بناية جميلة ثم تعطى لها فيما بعد وظيفة ما. ولا يمكن تشكل الكلمات في الذهن أو كتابة كتاب قبل وجود فكرة أو معنى في الذهن. يتكون كل بناء تقريباً من المواد البنائية نفسها. لذا فهناك تشابه كبير بين الأبنية، ولكن أي بناية ليست مثل بناية أخرى تماماً.

إن الأحرف التي تشكل الكلمات واللغات هي نفسها، ولكن كل كلام يتم التعبير عنه بتلك الإشارات والأحرف المحدودة في أعدادها. ولو كانت هناك كلمة من سبعة أحرف فإنها تختلف تماماً مع كلمات أخرى تشابه معها في ستة أحرف، لأن اختلاف حرف واحد يبدل المعنى ويجعلها مختلفة عن الكلمات الأخرى. كما أن هناك احتمال وجود سبع كلمات مختلفات لها سبعة أحرف... ووجود ستة أحرف مشتركة بين هذه الكلمات لا يدل على أنها مشتقة من جذر واحد. لأن المعنى هو الذي يحدد ماهية كل كلمة ويحدد حروفها. ونظير هذا فإن الوظائف المتشابهة تقتضي عند الكائنات أعضاء وتراكيب متشابهة. وعلى الرغم من وجود بعض الشبه في عالم الأحياء، وعلى الرغم من استعمال مواد البناء واللبنات نفسها نرى وجود اختلافات لانهائية فيه.

ولو قمنا بالتعبير عن الأمر بصورة عكسية لقلنا بأن تشابه مواد البناء واللبنات الأساسية في الأحياء على الرغم من وجود اختلافات لانهائية يدل على وجود قصد وإرادة ومعنى معين. لذا فكما تتراص الكلمات حسب معنى معين، كذلك تُخلق الأحياء حسب الوظائف التي ستكلف بها، وتعطى لها الأعضاء والتراكيب المناسبة. لذا فالتشابه الموجود بين الأحياء لا يشير إلى التطور، بل يشير إلى العكس.

ثانياً إن هناك أعداداً غير محدودة من الكائنات ومئات الآلاف من

الأنواع على سطح الأرض^(١) ولو كان لكل نوع وجه خاص وأعضاء مختلفة، ولو كان لكل نوع بنية مختلفة وجسد مختلف لكان من الضروري وجود أنواع لانهائية من الأعضاء ومن التراكيب والبنى. ولو تناولنا الأمر على مستوى الإنسان لكان من الضروري أن يكون لكل فرد تركيب وبنية مختلفة وشكل مختلف لأن الإنسان يشكل نوعاً فريداً في عالم الكائنات. ولا شك أن الله تعالى له القدرة على إعطاء شكل مختلف وبنية مختلفة لكل نوع. ولكن كان من الصعب في هذه الحالة تحقق التقارب والتفاهم والتعاون في عالم الأحياء وفي عالم الإنسان، ولأصبح كل نوع غريباً عن الأنواع الأخرى... أي لكان هناك عالم لا يطاق فيه العيش.

ثم إن كل شيء مشابه أو كل شيئين متشابهين ليس معناه العينية. فمثلاً هناك أنواع عديدة من السوائل، ولكن ماء الورد يختلف عن حامض الهيدروكلوريك، وحتى في الاستعمال نرى أن أحدهما يجلب الراحة، والآخر يحرق. وكذلك نرى أن الشمس والكهرباء والشمعة والخشب المحترق يعطي كل منه الضوء، ولكن لا يمكن إرجاع الجميع إلى مصدر واحد. لذا فوجود عضو واحد في الإنسان، أو عدة أعضاء مشابهة لما هو موجود في الحيوانات، بل حتى وجود أوجه تشابه عديدة بين الإنسان وبين الحيوان لا يشير ولا يبرهن على وجود تطور بين النوعين. لأن كل موجود قد أعطيت له الأعضاء المناسبة لتحقيق وظيفته في الحياة. علماً بأنه قد تبين اليوم بأن العديد من الأعضاء -التي عدت في السابق أعضاء ضامرة ولا فائدة منها ولا وظيفة لها- لها وظائف مهمة.

بجانب هذا فقد تكون هناك في الطبيعة أشياء تبدو وكأنها غير مناسبة للبيئة ولبنية البيئة العامة وتركيبها، بل هي موجودة فعلاً. ولكن يمكن

(١) لم يكمل بعد الفرز النهائي للأحياء، ولكن ما تم منه حتى الآن يظهر أن عدد أنواع النباتات والحيوانات بلغ عدة ملايين. (لمترجم)

البحث عن المعاني التي تشير إليها من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لا نعرف بعد طبيعة بنية البيئة حق المعرفة، ولم نحل جميع ألغازها. أحياناً يوضع شيء في مكان غير مناسب، كعنصر من عناصر الديكور والجمال فيجلب الأنظار إليه. فإن أثار هذا الاهتمام، وقام الإنسان -استناداً إلى هذا- بإصدار حكم حول البنية العامة فإنه ينخدع تماماً. وهذه النقطة نقطة امتحان زلت فيها كثير من الأقدام.

فإن كان هناك قصر له ألف باب اثنان منها مغلقان، فمن الخطأ الحكم بأن جميع أبواب ذلك القصر مغلقة. وكذلك لو كانت هناك شجرة لها جذور حية وقوية وجذع متين وأغصان وأوراق وثمار في تمام العافية والنضج، فإن من الخطأ الفاحش القول بأن هذه الشجرة شجرة ميتة وغير صالحة لمجرد وجود ثمرتين عفتين على غصن منها. كذلك فإن التوصل إلى استنتاج بوجود تطور بين الأنواع من مجرد وجود عضو أو عضوين ضامرين، (وبالتالي الظن بأنهما غير مفيدتين) خطأ بنفس الدرجة وتصرف غير علمي.

لقد زعم دارون -انطلاقاً من وجود التشابه- إلى أن وجود بعض الأمراض التي تصيب الإنسان تصيب الحيوانات أيضاً مما يشكل حسب رأيه دليلاً آخر في هذا الصدد (أي في وجود قرابة بين الإنسان والحيوان). ولا يسعنا هنا سوى ذكر ما سبق أن ذكرناه في هذا الأمر.

فالأمرض المكتشفة تبلغ العشرات، بل المئات إن أخذنا بنظر الاعتبار الأمراض الثانوية المتشعبة عن الرئيسية. ولو كانت هناك أمراض متعددة لكل نوع من الأنواع لكان من المفروض وجود عدد لا يعد ولا يحصى من الأمراض. ثم إن وجود أمراض مشتركة بين الإنسان والحيوان شيء طبيعي جداً ومتوقع طالما أن بنية الإنسان والحيوان مؤلفة في الأغلب من لبنات متشابهة وتؤدي مهمات متشابهة، لذا فلا يشكل هذا الأمر دليلاً له أي قيمة

في أن الإنسان متطور من الحيوان. علماً بأن معظم الأمراض التي تصيب الإنسان ليست هي نفس الأمراض تماماً التي تصيب القرود. على العكس من هذا تماماً فبعض هذه الأمراض تظهر في أنواع أخرى من الحيوانات، فمثلاً يظهر مرض (amfizem) المزمن عند الخيول، ومرض سرطان الدم في الققط والثيران، ومرض العضلات (ditrofisi) في الدجاج والفئران، وتصلب الشرايين في الخنازير والحمام، ومرض سوء التخثر ومرض التهاب الكلية في الكلاب، ومرض قرحة المعدة في الخنازير، ومرض (anevrizma) في الديك الرومي، وحصاة الصفراء في الأرانب، والتهاب الكبد في الكلاب والخيول، وحصاة الكلية في الكلاب والثيران، ويظهر مرض السُّد (إعتام العين cataract) في الكلاب والفئران. وفي الطيور والدجاج أيضاً.

فهل نستطيع انطلاقاً من هذا الادعاء أن نقول بأن أصل الإنسان فأر، أو أنه تطور من الكلاب؟ أو أنه ترقى من الثيران؟ إن من الطبيعي أن يصيب الإنسان والحيوان النوع نفسه من الفيروس والبكتريا، ولا يدل هذا على كون منشأ الإنسان والحيوان واحداً. وهناك أمراض تصيب الإنسان كما تصيب الطيور والدجاج التي تعد من الناحية البيولوجية بعيدة جداً عن الإنسان. فإن أرجعنا الإنسان -بواسطة هذه الأمراض- إلى الدجاج فسيكون هذا ابتعاداً عن النظرة الداروينية. لأن دارون ربط الموضوع بالتطور ووضع القرود بين أنواع الحيوان والإنسان.

٢- التكيف ومسألة الأعضاء المستعملة وغير المستعملة

بعد أن أوضحنا بأن مسألة التشابه -التي هي من منطلقات دارون- لا يمكن أن تكون أساساً للتطور، علينا أن نبين بأن أساساً آخر من أسس الداروينية وهو زعمهم بأن الأعضاء غير المستعملة ستضمحل بمرور الزمن، وأن الصفات المكتسبة فيما بعد عند الأحياء تنتقل إلى ذرياتها وأنسائها

حسب نظرية لامارك... فلقد تبين بان هذا الزعم لا يملك أي مصداقية. صحيح أننا نرى أن بعض الأعضاء ولاسيما العضلات عندما تستعمل كثيراً تتضخم. ورافع الأثقال تتضخم عضلات ساعده وتنمو بشكل جيد. ولكن ابن حامل الأثقال لا يأتي إلى الدنيا بعضلات ضخمة. ولكي يملك مثل هذه العضلات عليه أن يتمرن على رفع الأثقال. ونظير هذا المثال نجد أن اليهود يُختنون منذ أربعة آلاف سنة. وعلى الرغم من مضي كل هذه السنوات الطويلة فلا يولد طفل يهودي وهو مختون. كما أن المسلمين يُختنون منذ ١٤ قرناً، ومع هذا لم نر من ولد مختوناً. لذا فإن قبول انتقال الصفات التي يكتسبها جيل من الأحياء إلى ذرياتها عن طريق الوراثة، واعتبار هذا الأمر قضية مسلماً بها لا يتلاءم مع العلم ولا مع الكرامة العلمية.

ومثيل هذا خرافة أخرى وهي أن الأعضاء غير المستعملة تضمر. بمضي الوقت، وتنتقل ضامرة إلى الأجيال القادمة، أما الأعضاء المستعملة فتقوى وتتطور. وقد ادعى "لامارك" بأن عنق الزرافة أصبحت طويلة أكثر من الاعتيادي، لأنها كانت تضطر لمد أعناقها لأكل أوراق الأشجار العالية، وأنها شعرت بضرورة كون أعناقها طويلة. فأى حيوان لا يرغب في أكل الأوراق الموجودة في أعلى أغصان الأشجار؟ ولماذا طال عنق الزرافة ولم تطل أعناق الحيوانات الأخرى؟ من المعروف أن العنز تتغذى من أغصان الأشجار وأوراقها على الدوام إلى درجة أنها تعد من أعداء الغابات. ولكن لكون أعناقها لم تطل فهي مضطرة على الدوام لبذل جهد كبير لتسلق الأشجار. ألم تكن الثعابين ترغب في أن تكون لها أرجل تمشي عليها بدلاً من صعوبة الزحف بين الأتربة والصخور؟ ويدعي دارون أن أرجل الثعابين ضمرت بمرور الوقت. وهنا يوجد تناقض واضح لكل عين. فلو كان هناك تطور في عالم الأحياء لكان من المفروض أن تتطور الثعابين من أحياء كالديدان إلى أحياء تملك أرجلاً طويلة متكاملة ومتطورة. فمن جهة يقولون بأن الثعابين كانت تستعمل أرجلها في عهد من العهود، ثم لم تعد تستعمل هذه الأرجل فضمرت. بينما

لو كانت الثعابين قد ظهرت وهي تملك أرجلاً - كالحَيُول مثلاً - لاستعملت هذه الأرجل طبعاً. إذن لماذا لم تستعمل هذه الأرجل وانقلبت إلى زاحف؟! . فمن جهة يدعون بأن الثعابين لم تستعمل أرجلها مما أدى إلى ضمورها، ومن جهة أخرى يدعون أن أعناقها طالت بسبب اضطرابها إلى الزحف الدائم. أليس في هذا تناقض واضح؟

ويزعم دارون كذلك أن الطير اكتسب فيما بعد جناحيه لكي يستعملهما في الطيران. وهنا يوجد تناقض واضح في هذا الزعم. لأنه كان من المفروض - حسب الادعاء بأن الأعضاء المستعملة تتكامل وتتطور، وأن الأعضاء غير المستعملة تضمر - أن تضمر جناحا الطائر، لأن الطائر لم يستعملهما طوال فترة عدم صلاحيتهما للطيران. لذا كان من المفروض أن تضمر الجناحان وتعدمان أو تقربان من الانعدام والاختفاء... كما أن مثل هذا الزعم يجلب معه أسئلة كثيرة. فكيف تكامل هذا الطائر تدريجياً قبل أن يملك جناحين صالحين للطيران، ثم امتلك الجناحين فجأة؟ وكيف شعر الطائر بضرورة امتلاكه للجناح؟ وكيف قام بتطوير جناحيه؟. فهل كان يتدرب على امتلاك الجناح بعد شعوره بحاجته له فظهر هذا الجناح فجأة؟ وقبل أن يمتلك الطير الجناح أكان يتحول مع الحيوانات الأخرى؟ أم كان له عضو حافظ عليه وكان يستخدمه سابقاً وتحول هذا العضو إلى جناح؟. فكيف حافظ على هذا العضو وبأي عامل؟ لا يملك دارون ولا الذين تبنا نظريته بكل تعصب - وكأنها حقيقة لا شك فيها - أجوبة مقنعة حول هذه الأسئلة.

نرى أن الذين يصرون على التمسك بنظرية التطور، أي يصرون على فكرة أن الأعضاء غير المستعملة تضمر وأنها تنتقل بالوراثة إلى الأجيال اللاحقة، يقدمون مثال اللوزتين والزائدة الدودية عند الإنسان دليلاً في هذا الموضوع. فأنصار هذه النظرية يقولون بأن الزائدة الدودية التي تقع بين الأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة عضو ضامر وراثته من أسلافنا من الحيوانات آكلة العشب، لذا فلا ضرورة ولا فائدة له. ولكن العلم يقول اليوم أن

للوزتين عبارة عن بوابة حراسة وأمن ضد الجراثيم التي تحاول دخول جسم الإنسان عن طريق القدم. ويصف البروفيسور "عثمان بارالاس" في كتابه "الطب السريري وتشخيص المرض" الزائدة الدودية بأنها: "المعدة الثانية للإنسان". وغنى هذا العضو باللمف والأوعية الشعرية يشير إلى أهميته. ويحتمل أننا سنملك في المستقبل معلومات أكثر تفصيلاً حول الزائدة الدودية. ولكن ما عرضناه حولها يكفي لبيان تمهافت هذا الزعم.

ويذكر دارون أن الشعر الموجود في الإنسان ضامر أيضاً، حيث يقول: "لقد كان أحداد الإنسان حيوانات ذات شعر كثيف، وأنه عندما تطور وتحول إلى إنسان سقط الكثير من شعره". ولكن عندما جاء ليفسر سبب عدم وجود الشعر عند النساء في أكثر أجزاء أجسامهن اعتذر بغير لا يتلاءم ولا ينسجم مع نظرية التطور فقال: "لقد كان هذا ضرورياً لجمال المرأة وجاذبيتها!!" لقد كان من الممكن أن يكون إيراد هذا السبب مفهوماً لو تم النظر للموضوع من زاوية الحكمة ومن زاوية الخلق الالهي.

ولكن الأمر ليس كذلك مع نظرية ترى أن هذا الوجود -الذي يستند فيه كل شيء وفي كل جانب من جوانبه، وفي كل جزئية من جزئياته وكل حركة من حركاته إلى شعور كلي، وإلى علم وقدرة وإرادة مطلقة وأثر من آثارها- وهذا الكون وما فيه من حياة تستند إلى المادة الصماء الخالية من أي شعور أو علم أو إرادة أو حكمة، وإلى الطبيعة وإلى المصادفات العشوائية. أي أن قيام هذه النظرية في صدد إيضاح عدم وجود الشعر الموجود في الرجال في أجساد النساء إلى الحكمة وإلى سبب شعوري يعد هروباً وتناقضاً صارخاً. بل هو عجز عن الهروب من الحقيقة.

ويحاول دارون تفسير وجود الشعر في رؤوس الرجال وعدم تساقطه فيقول: "بما أن الرأس معرض كثيراً للضربات فقد كان من الضروري أن يبقى الشعر عليه". ولكن أيتعرض أنف الإنسان وجبينه بل وركبته ورجله

إلى صدمات أقل، لذا تساقط الشعر هنا ولم يبق فيها إلا الشيء القليل منه بينما بقي في الرأس؟!!

ويقدم الداروينيون الجدد الدليل الآتي للبرهنة على التغيرات الحاصلة في الكائن الحي للتكيف مع البيئة: يقولون بأنه جرى في بعض الأماكن الصناعية في أوروبا ما يطلق عليه اسم "قمامة التصنيع"، فقد لوحظ في هذه الأماكن أن الفراشات السوداء وذات الألوان الغامقة تستطيع صيانة أنفسها عن أعدائها عندما تحط فوق الجدران الغامقة والسوداء، أكثر من الفراشات ذات الألوان الفاتحة، وتتكاثر أكثر منها. إذن فهناك عملية تغيير، حيث سيأتي يوم تنقرض فيه الفراشات ذات الألوان الفاتحة انقراضاً تاماً بينما تبقى الفراشات ذات الألوان القاتمة.

من الواضح أن هذا الدليل دليل متهافت تماماً. لأن الفراشات التي انقرضت والفراشات التي بقيت هي فراشات، فكما لم يحصل أي تطور من نوع إلى نوع آخر، كذلك لم يحصل أي تغير داخل النوع نفسه.

كما يقدمون حدوث التغيرات ضمن النوع الواحد من الأحياء -إما نتيجة حادثة طبيعية أو نتيجة عزل صناعي، أي نتيجة العيش في ظروف مختلفة- كدليل على التطور على أساس من التكيف للبيئة. من الممكن مشاهدة مثل هذه التغيرات في كل وقت، ولكنها تغيرات ظاهرية وتجري ضمن النوع الواحد. ولا يمكن إيراد هذه التغيرات كدليل على سلسلة عملية التكامل والتطور التي تؤدي لظهور أنواع جديدة من الأحياء. ولو تم مثل هذا الادعاء لما كان مقنعاً أبداً.

٣- التطور والمراحل التي يمر منها الجنين في رحم الأم

هناك ادعاء آخر في هذا الموضوع، وهو أن الجنين عندما يمر بمراحل النمو في رحم الأم يكون مشابهاً للمراحل الأولى لنمو الأجنة الأخرى

للحيوانات الفقرية الأخرى. ولا يوجد لهذا الادعاء أي جانب مقنع. وقد قام البريفيسور "شنكون" بنقد هذا الادعاء ويقول بأننا لا نعرف الشيء الكثير عن مدى التناظر والتشابه الموجود في مراحل نمو وتطور البويضة المخصبة. علماً بأنه ليس من السهل معرفة وملاحظة التناظر والتشابه، لأن بعض الأجنة تنمو وتتطور بسرعة، بينما تكون أجنة أخرى بطيئة النمو والتطور. ومع وجود تشابه مورفولوجي^(١) - أي شكلي - فإن نسل كل كائن حي يملك خواصاً وكر وموزومات وجينات واستعدادات ومسار نمو وتطور خاص به.

يعطي القرآن معلومات حول مراحل تطور الجنين، وهي معلومات أيدها العلم بعد ١٤ عصراً من نزوله. لذا سنتناول التطور في ظل الآيات القرآنية.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ (المؤمنون: ١٢-١٥).

تذكر الآية هنا أن العناصر الموجودة في التراب هي المنشأ المادي للإنسان. وقد يكون هذا الذكر رمزاً أو تشبيهاً، والمقصود منه قد يكون الأغذية التي تدخل هذه العناصر فيها والتي تكون سائلاً أو حساءً من البروتينات. وكلا المعنيين صحيحان. ثم يدخل هذا السائل إلى رحم الأم كنطفة حيث تبدأ بتعقب مراحل أخرى مختلفة. فيجعلها الله تعالى أولاً علقه، أي قطعة دم متخثرة ملتصقة بجدار الرحم. وكلمة "علقه" في اللغة العربية لها ارتباط بكلمة "علاقة" الموجودة في اللغة التركية. أي أن شكل العلقه الذي تأخذها العلقه الملتصقة بجدار الرحم تكون لها علاقة بالأم

(١) المورفولوجيا: فرع من علم الأحياء (البيولوجيا) يبحث في شكل الأحياء من النباتات والحيوانات وبنيتها. (المترجم)

وبجسدها وتتغذي منه. وينسب القرآن كل هذه التطورات بالله تعالى. لأنه ليس باستطاعة تلك النطفة ولا تلك العلقة القيام بنفسها بأي عمل، ولا تملك أي حظ للنجاح في إنجاز أي عمل من الأعمال التي تستوجبها وتيرة التحول إلى إنسان كامل مهما كان صغيراً، والتي تقتضي شعوراً وإرادة وعلماً وقدرة لانهائية. لذا فالله تعالى هو الذي يقدر هذه الأفعال وينجزها.

وعندما نقوم بشرح المراحل المختلفة التي يمر بها الجنين في رحم الأم نستعمل عبارات يبدو من ظاهرها وكأن هذه المراحل تتم تلقائياً. بينما لا نعني هذا بل هو أسلوب مجازي فقط. بينما تقوم نظرية التطور بالادعاء بأن جميع هذه المراحل تتم تلقائياً وعن طريق المصادفات العشوائية، فتعرض بذلك جهلاً وإنكاراً غير مسيوقين في التاريخ. وهذا هو السبب كما أعتقد في هذه الأهمية البالغة التي يوليها العلم المادي لهذه النظرية.

إن العلقة التي تلتصق بجدار رحم الأم تدخل في علاقة قوية وجذرية مع الأم ومع جسدها. ثم تتحول إلى "مضغة"، وهي تعني شيئاً مثل قطعة لحم ممضوغة في الفم لا شكل لها. ثم لا تلبث أن تتحول بعض الخلايا الموجودة فيها -التي تكوّن هذه المضغة التي لها شكل اللحم الممضوغ- إلى غضروف أولاً ثم تتحول تدريجياً إلى عظم. وبعد تشكل هذه الخلايا يتم تشكل خلايا العضلات والأنسجة الرابطة، حيث يقوم اللحم المتشكل منها بتكسية العظم. ولم تتوضح تفاصيل هذه المراحل في علم الأجنة الحديث إلا بعد تيسر رؤية بطن الأم بأشعة أكس، بينما شرح القرآن هذه المراحل قبل ١٤ قرناً بشكل واضح. علماً بأن الغاية الرئيسية للقرآن هي عرض الحقائق الأساسية كالتوحيد والنبوة والحشر والعبادة والعدالة، وإيضاحها والبرهنة عليها.

لذا فإن القرآن عندما يتعرض لبعض الحقائق العلمية عرضاً يستعمل أسلوب التشبيه والاستعارة والمجاز والمثال. ولكن قيام القرآن بعرض المراحل

التي يمر بها الجنين في رحم الأم بكل هذا الوضوح والصراحة لا بد وأنه كان ضرورياً لإزالة الشكوك التي تثار في المستقبل، ولإيضاح مدى خطأ ما ستطرح من نظريات - كنظرية التطور- فجاء هذا التنبيه والتفصيل من قبل ١٤ قرناً لهذا الغرض.

وبعد أن يشرح القرآن خلق العظام ثم إكساءها اللحم يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾. وتبين من هذه الآية أن الإنسان خُلِقَ مستقل بذاته، وهذه المرحلة هي بداية هذا الخلق الخاص.

ضمن هذه المراحل الخمس، أي مرحلة النطفة ثم العلقة، ثم المضغة ثم مرحلة خلق العظام، ثم مرحلة إكساء العظام لحماً، تبداً جميع الأحياء الفقرية متشابهة تماماً. فلو شاهدنا جنين طائر أو سمكة أو جنين إنسان في طور من أطوار هذه المراحل الخمس لما رأينا أي فرق يذكر بين هذه الأجنة. ولكن هذا التشابه الذي يبدو تاماً، تشابه ظاهري فقط. لأن مدة هذه المراحل مختلفة فيما بينها، فبعضها قصيرة جداً وبعضها طويلة.

ثانياً إن كل جنين يملك خواصاً تعود لنوعه، ويتميز بها، ولا نستطيع مشاهدة هذه الخواص من الخارج، لا بل لا نستطيع مشاهدتها حتى لو دخلنا بطن أمه، وهو ينمو ويتطور حسب هذه الخواص، إلى درجة أن كل إنسان يختلف عن الآخرين إلى درجة ما، لأنه يظهر في النهاية فرد يختلف عن الآخرين من نواح عديدة: يختلف بشعره وعينه وأنفه وشفتيه وقامته ووزنه وبصمات أصابعه وجزيئات D.N.A. عنده، ومظهره وتصرفاته وقابلياته. ولكن توجد بين أجنة النوع الواحد صفات مشتركة تعود لذلك النوع. فمثلاً نرى أن الإنسان لكونه خُلِقَ في أحسن تقويم، أي في أفضل شكل وجهٍ بالعقل والمشاعر والإرادة، فإنه ما أن يأتي إلى الدنيا حتى يظهر الاستعداد للتعلم، وكذلك للترقي والسمو بالإيمان والعبادة. ولكونه يملك

سر هذا الاستعداد، فإن كل جنين إنساني مجهز بهذه القابليات لتحقيق الأمور والأهداف التي ذكرناها.

ومع هذا فلكل جنين بشري خواصه المتميزة، لأن كل فرد من الأفراد في النوع الإنساني يملك خواصه التي يتميز بها. وهذه الصفات والخواص التي يملكها ذلك الكائن الحي وتميزه عن الكائنات الحية الأخرى هو البرنامج الموجود في جزيئات D.N.A والكامن في جيناته الموجودة في كروموزومات ذلك الكائن. ومع هذا فلا يبدو في الظاهر أي فروق تشير إلى هذه المميزات والخواص في أجنة الأحياء الفقرية في المراحل الخمس الأولى، ولا يمكن ملاحظة أي فروق. أي تبدو وكأنها مثل الأجنة الأخرى تماماً.

ولنفرض أن أجنة الأحياء الفقرية كالطير والسمك والإنسان متطابقة بعضها مع البعض الآخر تماماً، فكيف يستطيع العلم أو أنصار نظرية التطور تفسير التغيرات الكبيرة التي ستظهر فجأة بعد هذه المراحل؟ إن الأحاديث النبوية الشريفة تذكر بأن الروح ينفخ في هذه المرحلة في الإنسان ويكتسب قدره. ولكن بما أن نظرية التطور والعلم المادي لا يعترفان بالروح ولا بالقدر فكيف يستطيعان تفسير هذه التغيرات والتميزات الفجائية، وكيف يفسران أن كل فرد إنساني يكون متميزاً عن الأفراد الآخرين، ويتجه لكي يكون ذا كيان مستقل ومتميز؟

فإن كانت عملية التغير هذه والتمايز عند الإنسان نابعاً عن روحه الذي يعطيه هويته الحقيقية وعن قدره، أي عن الخصائص المعنوية التي تعطي له ماهيته وكيانه، فإن على التطوريين وعلى أرباب العلم أن يفحصوا كل موضوع وكل مسألة من البداية، ويفكروا فيها من جديد، أليس كذلك؟ ومع هذا فإننا نؤمن -على الرغم من الادعاء المعاكس للتطوريين- بأن لأجنة كل نوع من أنواع الأحياء، ولكل فرد من أفراد النوع الإنساني فروقاً خاصة به، وخواصاً نابغة من روحه ومن قدره.

بعد المرحلة الخامسة من النمو يبدأ الجنين الإنساني بأخذ شكل إنساني، ويبدأ كل فرد بحمل الخواص المميزة له. وهذه المرحلة هي مرحلة اكتساب صفة "أحسن تقويم" وسره. وهنا تظهر أعلى درجة من درجات صفة الخلق لله تعالى في خلق الإنسان، أو أعلى مرتبة من مراتب الخلق، وهو ما تلخصه وتشير إليه الآية الكريمة ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. لذا نستطيع القول بإيجاز بأنه لكون الخالق جل شأنه يتجلى باسمه الأعظم في خلق الإنسان فإنه -أي الإنسان- مجهز بالاسم الأعظم من أسماء الله الحسنى، فأصبح مظهراً لأن يتبوأ مرتبة "أحسن تقويم". أي إنه مخلوق متميز وفريد.

والخلاصة فإن أجنة الحيوانات الفقرية تكون متشابهة فيما بينها في المراحل الأولى، كما أن مشابهة الجنين الإنساني لأجنة الحيوانات الفقرية الأخرى مشابهة ظاهرية، وفي المظهر الخارجي فقط، لذا لا يمكن عدّ هذا دليلاً للتطور بأي حال من الأحوال.

يقول العالم سير جيمس جينز المختص في علم الفيزياء الكوني -الذي يعد من أكبر علماء القرن العشرين، والذي يعد من قبل الكثيرين بأنه "أنشتاين ثان"- في كتابه "الكون الملى بالأسرار" و"الكون من حولنا" المترجمان للغة التركية: (إن الإنسان المشغول بفرع من فروع العلم يصل إلى درجة الفناء في ذلك العلم). أي أن الإنسان يتشرب بفرع العلم الذي ينشغل به إلى درجة الفناء فيه. فلا يسمع إلا بأذن ذلك العلم ولا يرى إلا بعينه، ولا يتكلم إلا بلسانه، ويعيش انفعالات ذلك العلم. ويعطي هذا العالم مثلاً على هذا فيقول: (إن الموسيقي الذي يتعود على سماع النغمة التي يصدرها المفتاحان الخامس والسادس على الدوام، لا بد وأنه عندما ينزل سلماً ويصل إلى الدرجة الخامسة ثم الثامنة سيخيل إليه أنه يسمع النغمتين نفسيهما الصادرتين من المفتاحين الخامس والسادس في البيانو).

قام بعض العاملين في الحقل الهندسي بعمل أشكال مثلثة ومربعة في

صحراء شبه الجزيرة العربية وفي الصحراء الكبرى في أفريقيا وأوقدوا فيها النيران الكبيرة، فأحدثوا أنواراً وأضوية قوية ساطعة لكي يجلبوا أنظار الكائنات الذكية الأخرى التي يرون احتمال وجودها في الكون من الذين يفكرون هندسياً مثل الإنسان. هؤلاء العاملون في الحقل الهندسي قد ذابوا وفنوا في عالم الهندسة. ويعتقد المختصون في حقل الرياضيات أن الصانع جل وعلا قد خلق الكون بمقاييس رياضية. وهؤلاء أيضاً فنوا في الرياضيات.

أما دارون فلكونه قد قضى حياته في ملاحظة وتدقيق ودراسة الحيوانات ومتحجرات الحيوانات، ولم يخرج خارج إطار هذه الساحة فإنه نظر إلى الوجود وإلى الخلق وباختصار إلى كل شيء من زاوية، ومن نافذة هذه الساحة، ومن منظراها، واستعان بتفاسير لا يقبلها لا العلم ولا المنطق ولا العقل لكي يبرهن على فرضيته. والأمر نفسه نلاحظه عند الذين تبنا نظريته بتعصب وإصرار. وقد نبّه العالم الفلكي "جيمس جينز" إلى مخاطر التخصص مع الاعتراف بفائدته.

٤- المتحجرات

الذين تبنا نظرية التطور من أجل تفسير منشأ الحياة وأصلها يرون ضرورة الاستعانة بالمتحجرات، وذلك من أجل البرهنة على صحة هذه النظرية من جهة، وكذلك بسبب عدم حدوث ما يثبت وقوع أي تطور ملحوظ ضمن العهود التاريخية المعروفة.

وقد فعل دارون الشيء نفسه. بدأ بدراسة الطب في بادئ الأمر لكونه من عائلة غنية، ولكنه كان يهرب من المدرسة ويتجول في الحقول منشغلاً بملاحظة النباتات والأعشاب ومهتماً بها. وعندما لم ينجح في دراسة الطب قرر دراسة اللاهوت. والظاهر أنه كان يملك ذكاءً نظرياً، ولكنه لم يكن يملك ذكاءً عملياً بنفس المستوى، لذا نراه يرى صعوبة في دراسة اللاهوت،

وأخيراً أدت حادثة إلى عثوره على مهنته المناسبة له، فقد خرج في رحلة علمية بحرية رتبها الحكومة البريطانية. وفي هذه الرحلة البحرية قام ببحوث في جزر المحيط الأطلسي وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا. وقام بمقارنات بين الأحياء في جزر كلاباكوس وحيوانات سواحل القارة، ودرس بعض المتحجرات، ولاحظ النشاطات البركانية وفعاليات المرجان. كما جمع بعض نماذج النباتات والحيوانات.

والخلاصة أنه لكي تتم البرهنة على أن الإنسان قد أتى من سلف قردي، وأن الأنواع تتحول من نوع إلى نوع آخر، فقد ظهرت الحاجة للاستعانة بالمتحجرات للعثور على الحلقات الوسطى وعلى المراحل الانتقالية الموجودة بين الأنواع عند هذه التحولات. والذين يقومون بهذا العمل هم علماء البالانتولوجيا (أي علماء المتحجرات).

فلو عثر علماء المتحجرات -من غير الحاملين لفكر وحكم مسبق- متحجرات لأحياء يمثلون هذه الحلقات الوسطى، أي على الأحياء التي تمثل المراحل الانتقالية بين الأنواع، وذكروا إمكانية ربط الإنسان بالقرود، وفي الوقت نفسه قام علماء الجينات المحايدون بتأييدهم، عند ذلك فقط يمكن أن تحتل هذه النظرية قبولاً في المحافل العلمية، وعند ذلك فقط يمكن قبول مثل هذه النظرية، وقبول أنها تستحق إجراء الدراسات والبحوث حولها. وما لم يتم هذا لا يمكن عدّ ادعاءات التطور نظرية علمية.

متحجرة طائر

يتحدثون الآن عن متحجرة يقال أنها متحجرة لطائر طويل الذيل له أسنان، كما يملك كلابات في أجنحته، أطلقوا عليه اسم "آركيوباتركس Archaeopteryx" وزعموا أن هذا الطائر هو الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور. ويقول التطوريون استناداً إلى هذا بأنهم قد عثروا على مرحلة تطورية وسطى بين نوعين، وأنهم سيعثرون على الحلقات الوسطى الأخرى التي تصل الإنسان بأول دودة تطور منها، وسيملاًون الفراغات الموجودة في هذه السلسلة. وهكذا سيبرهنون بأن الإنسان قد تطور من القرد.

علماً بأنه لا توجد أي علامة ولا أي إشارة بأن هذه المتحجرة حلقة وسطى بين الزواحف والطيور، حيث نرى البروفيسور عاطف شنكون - وهو من المدافعين عن هذه النظرية- يقول في الجزء الأول من كتابه (التطور) عن هذه المتحجرة:

(لا تملك هذه المتحجرة قيمة دليل في المحافل العلمية). ولو عُدت هذه المتحجرة حلقة وسطى، فليس هناك من مانع إذن من عدّ الخفاش في نفس القائمة، لأن الخفاش طائر ثديي، أي من الأحياء الثديية، لذا يمكن عده حلقة وسطى بين الثدييات وبين الطيور.

ولكن العلم لا يذكر أي عهد لم يكن الخفاش فيه موجوداً، كما لم يتعرض الخفاش لأي تغيير طوال وجوده، لذا لا تجد عند أنصار التطور أية نية في استعماله كدليل في موضوع التطور. وفي الوقت الحاضر هناك بعض

الطيور التي لها أسنان في منقارها وكلابات (أصابع) في أجنحتها مثل متحجرة ذلك الطائر، وأفضل مثال على هذا صغار طائر Opisthocomus hotzin.

لذا فإن الاستناد إلى مثل هذه المزاعم الواهية - في الوقت الذي لم يتم الكشف عن جميع الأحياء التي عاشت حتى الآن، بل لم يتم الكشف حتى عن جميع الأحياء التي تعيش حالياً- والبحث بهذه الطريقة عن الحلقات الوسطى حتى الوصول إلى الإنسان ليس إلا عبثاً لا طائل تحته، ولا تفيد في شيء. لأنه كان من المفروض وجود المليارات من متحجرات الحلقات الوسطى التي تبين مراحل الانتقال بين ملايين الأنواع من الأحياء. ومع أنه تم العثور على أعداد كبيرة جداً من متحجرات الأحياء التي عاشت سابقاً ثم انقرض نسلها، إلا أنه "لسبب ما!!!" لم يُعثر حتى الآن على متحجرة واحدة كأنموذج وكمثال على أي مرحلة انتقالية أو حلقة وسطى بين الأنواع.

أما بعض الأحياء التي خلقت وعاشت في الماضي ثم انقرضت لأسباب عديدة على رأسها عدم تكيفها مع البيئة، كالديناصورات، فهي تشكل أمثلة على الانقراض وليس على التطور. وعلى الرغم من كل هذا فالإصرار منذ ما يزيد على قرن كامل على نظرية والقيام بصرف مبالغ طائلة في سبيلها لم يكن من أجل العلم ومن أجل الوصول إلى الحقيقة. وكما ذكرت فإن بعض المحافل العلمية مشغولة بنظرية التطور لكونها وسيلة في الوقوف ضد فكرة الخلق، أي ضد الإيمان بالله.

أسطورة الحصان ذي الأظافر الخمسة

أحد الأدلة المزعومة التي يستند إليها التطوريون في موضوع المراحل الانتقالية هو أسطورة "الحصان ذي الأظافر الخمسة". فحسب هذا الزعم كان الحصان في السابق بحجم الثعلب ويملك خمسة أظافر، وأنه مر بعد ذلك من مراحل Eohippus و Meshippu و Merychippus وأخيراً من مرحلة Pliohippus وفي هذه المراحل قلّ عدد أصابعه. وينظر البروفسور "عاطف شنكون" إلى هذا الادعاء بشبهة حيث يقول: (لا نملك أي معطيات علمية حول مجيء الحصان من أحياء هذه المتحجرات). ولو فرضنا أن هذه المتحجرات صحيحة فلا بد أنهما تعود لأنواع أخرى من الأحياء عاشت في السابق ثم انقرضت، ولا يمكن ربط الحصان بهذه السلسلة. فإن أصررنا على ربطه بهذه الأحياء، عند ذلك يظهر أمامنا - كما يقول عاطف شنكون - سؤالان مهمان:

أولاً: لماذا نقص عدد أظافر الحصان - حسب هذا الادعاء - من خمسة أظافر إلى ظفر واحد؟ ولماذا تحول من حيوان بطول ثعلب إلى الطول الحالي للحصان؟ لا يملك العلم أي جواب على هذا السؤال. وتوجد حالياً حيوانات بأظفر واحد وبأظفرين وبثلاثة أظافر. وهناك كائنات شبيهة بالثعالب لا تزال تدم حياتها في الظروف نفسها. وهناك كائنات بخمسة أظافر لا تزال على قيد الحياة. فلماذا قام الحصان إذن بطرح أظافره الأربعة ليبقى بأظفر واحد وبحجم أكبر؟ ولو قيل بأن قوائمه استطالت لضرورة

سرعة الجري، عند ذلك نسألهم: ولماذا لم تستطل قوائم كلب الصيد (السلوقي) إذن مثل الحصان؟ لأن كلاب الصيد تجري بسرعة كالحصان في الأقل، وهو أكثر استعداداً للنمو من الحصان، وأكثر حركة منه. فلماذا يكبر الحصان ويقلل من عدد أظافره بينما بقي كلب الصيد على حاله؟

لذا فكما قال عاطف شنكون فإن هذه المتحجرات المذكورة أعلاه -التي يعدونها مراحل انتقالية للحصان- حقيقية وعاشت في بعض العهود ثم اختفت، فلا بد أنها أنواع أخرى عاشت في السابق ثم انقرض نسلها.

وجود المراحل الانتقالية شرط من ناحية علم الجينات أيضاً. لأنه استناداً إلى مثال الحصان الذي ذكرناه، لا يمكن أبداً تصور أن حيواناً بحجم الثعلب انقلب فجأة وبطفرة واحدة إلى حصان. فهذا أصعب من قفز إنسان عشرة أمتار إلى أعلى دفعة واحدة. إن طفرة واحدة -أقل من مثل هذه الطفرة من ناحية التأثير والقوة- يمكن أن تقضي على الحيوان. لذا كان من الضروري وجود مراحل وسطية عديدة يعقب بعضها بعضاً بشكل منتظم. والدليل على هذا أن البحوث والدراسات تجري على هذا الخط، وضمن هذا الإطار.

ولقد أجروا بحثاً كثيرة وعثروا على متحجرات حديثة وعلى متحجرات قديمة عديدة، ولكنهم لم يعثروا على أي متحجرات تبين مراحل الانتقال من حصان بخمسة أظلاف إلى حصان بأربعة أظلاف ثم بثلاثة أظلاف ثم بظلفين. وقد اهتموا كثيراً بالمتحجرات التي تربط الإنسان بالقرود على زعمهم، فتكلموا عن متحجرات أمثال Australopithecus و Homo erectus و Neandertal و متحجرة رجل جاوة ورجل بكين.

نرى أن اليرفسور "عاطف شنكون" يتناول هذه المزامع بكل شبهة في الجزء الأول من كتابه "التطور" فهو يقول: "إذا كانت المتحجرة موضوع البحث قد عثر على يدها على بعد خمسين متراً من رأسها، وعلى بعض عظامها في عمق عدة أمتار فمن المشكوك فيه أن تكون كل هذه العظام عائدة

لمتحجرة واحدة ولمخلوق واحد، ولا يمكن التأكد من هذا. إذ يحتمل أن بعض هذه العظام تعود إلى مخلوق عاش في حقبة قديمة جداً، وأن بعضها تعود إلى مخلوق آخر عاش بعده بحقب عديدة. لذا لا يمكن هنا تقديم رأي قاطع".

وقد أفرط التطوريون في موضوع البحث عن الحلقة الوسطى بين الإنسان والقرود إلى درجة أنهم تحدثوا عن متحجرة (رجل بليتداون Piltown man) في سنوات ١٩١٢-١٩١٤ حيث زعموا أنه جد الإنسان الحالي. كانت المتحجرة عبارة عن قحف إنسان ضمن بأن عمره يعود إلى خمسمائة سنة ماضية، مع فك قرد أورانجتون، مع بضعة أسنان إنسانية. وتبين في سنة ١٩٥٣-١٩٥٤ بأن هذه المتحجرة مزيفة تماماً و"مصنوعة"، أي أن بعضهم قام بتركيب فك وأسنان من قرد من نوع أورانجتون على قحف إنسان، وركبوا بضعة أسنان إنسانية كذلك في الفك، ثم قاموا بإضافة مواد كيميائية على هذه الجمجمة لتبدو قديمة جداً. إن مثل هذه التصرفات يجعل من الصعب علينا تصديق الأبحاث المتعلقة بالمتحجرات. وهي تشير بل تؤكد إلى أن نظرية التطور خرجت من كونها مسألة علمية، وتحولت إلى مسألة أيولوجية، وإلى عقيدة.^(١)

(١) إن محاولات التزييف هذه لا تقتصر على هذا المثال فحسب، فقد قدّم التطوريون سمكة (Rhipitistian Crossopterigian) على أنها كانت الحلقة الوسطى بين الأحياء المائية والأحياء البرية وأن نسلها قد انقرض قبل سبعين مليون سنة. ولكن تم العثور على هذه السمكة حية قرب جزيرة مدغشقر عام ١٩٣٩، ومنذ ذلك الحين وحتى الآن عثر على ما يزيد على خمسين سمكة من هذا النوع. وعلاوة على هذا فقد تكن أعضاء هذه السمكة (تجاويف الأذن الداخلية، عظيمة الظهر على شكل الرأس و كيس السباحة) بالأوصاف التي ذكرها التطوريون والتي ساقطهم إلى توهم أنها الحلقة الوسطى بين الأحياء البرية والمائية. وكما ذكر العالم التطوري أ. هـ. كلارك (A.H. Clark) فالخلاصة هي أنه لم يتم العثور حتى الآن على أي متحجرة أو على أي نوع من أنواع الكائنات الحية يمكن عدّها حلقة وسطى، لذا فقد اضطروا إلى الاعتراف بأنه ما من حلقات وسطى قد وجدت في أي عهد من العهود. وقد اعترف (رينشارد ب. كولد شميت Richard B. Goldschmidt) بأنه لم يتم العثور على أي مراحل انتقالية أو حلقات وسطى، لذا نرى أنه يقدم نظرية أخرى ترى أن الكائنات الحية ملأت هذه الثغرات والفجوات الموجودة بين الأنواع بالطفرات الفجائية. ولا يوجد أي تفسير لمثل هذا الادعاء سوى الإيمان بالخلق (د. آراس: مجلة The Fountain العدد ٢٤ صفحة ١٤).

والبعد الآخر للمسألة هو: حسب أبحاث علماء البالانتولوجيا فإن أقدم متحجرة من هذه المتحجرات تعود إلى ما قبل مليون ونصف مليون سنة، بينما تم العثور في شاطئ بحيرة رودولف في كينيا على متحجرة إنسان عاش قبل ٢,٨ مليون سنة. كانت حجمته كحجممة الإنسان الحالي. وقد نشرت المجلة العلمية التركية (العلم والتكنولوجيا) في عددها الواحد والسبعين صورة الجمجمة مع مقالة مفصلة حولها. أي أن الكائن الذي قيل أنه يمثل المرحلة الانتقالية بين القرد والإنسان، تحول فجأة إلى حفيد من أحفاده! صحيح أن البعض ممن يستندون إلى بعض الكتب والمصادر الدينية -مثلاً الكتاب المقدس الموجود لدينا حالياً- واليهود ينتقدون القول بوجود مثل هذا التاريخ القديم للإنسان البالغ ٢,٥ مليون سنة. وهذا النقد متوجه طبعاً لعلماء المتحجرات الذين يستخدمون طرقهم وأساليبهم في تعيين الأعمار.

فإن تم الاعتراض على طرق قياس الأعمار لأي متحجرة من المتحجرات، انفتح باب الاعتراض على أعمار جميع المتحجرات الأخرى. لذا يجب عدم غض الطرف عن مدى صحة طريقة استخدام الكربون في قياس الأعمار وعلى الطرق الأخرى المستعملة في قياس أعمار المتحجرات. ولكن المهم عندنا هنا هو حقيقة أن الإنسان كان موجوداً على الأرض قبل وجود القرد، أو عاشا في الأقل في العهد نفسه.

الأشكال الخيالية لكائنات بين الإنسان والقرود

توضع أشكال معينة جنباً إلى جنب في الكتب الدراسية بزعم شرح نظرية التطور. ترى في هذه الأشكال شكل قرد ثم شكل ربيع قرد، ثم نصف قرد ونصف إنسان، ثم ثلاثة أرباع الإنسان وأخيراً صورة شخص أوروبي في منتصف العمر.

وكل هذا خداع في خداع. فلماذا تطور ذلك القرد يا ترى ولم تتطور بقية القردة؟ ولماذا ظهر في الأخير رجل في منتصف العمر، ولم تظهر امرأة؟ وكيف تم تطور المرأة؟ هل تطور قرد واحد، أم تطورت قروود عديدة في الوقت نفسه؟ ولماذا لم تتطور القروود مرة أخرى في الأماكن التي احتشدت فيها القروود بمحض المصادفة وتطورت؟ وأي قسطاس علمي يرضى بأن تتم الإجابة على كل هذه الأسئلة - التي تبين الثغرات العديدة الموجودة في هذه النظرية - بالمصادفات والفرضيات؟ وأين حرمة العلم؟ وماذا لو كانت كل هذه الجهود تتم باتجاه فكرة الخلق، التي تنفي وجود المصادفات في الكون، وتقول: إن جميع الدلائل تشير إلى وجود قدرة وعلم وإرادة لانهائية هي التي خلقت سلسلة الحياة هذه. أليس هذا أفضل وأليق وأكثر علمية؟

موضوع الطفرات

الطفرات إحدى نقاط الارتكاز المزعومة لنظرية التطور. وهي الفرضية القائلة بأن التغيرات الحاصلة في شفرات جينات الكائن الحي عن طريق المصادفات أو عن طريق ظروف البيئة تكون إحدى عوامل التغيير عند الانتقال من نوع إلى آخر.

إن الكروموزومات الموجودة في نواة الخلية -التي تعد بمثابة مركز القيادة في الخلية- تحتوي على الجينات. وكل الخصائص والمواصفات العائدة للكائن الحي موجودة ومسجلة في جينات هذه الكروموزومات (على شكل جزيئات (D.N.A.). وجزيئات (D.N.A.) -التي تشكل آلية القيادة والأوامر- بمثابة مخزن جيني للمعلومات، وقد خلقت بحيث تستطيع حتى من استنساخ نفسها، لذا فهي مرآة إلهية.

فكما يقوم جهاز الكمبيوتر عند الضغط على زر من أزراره بتقديم المعلومات المبرمجة في ذاكرته من قبل وعرضها أمامنا، كذلك تقوم هذه الآلية بتطبيق البرنامج المدمج فيها بكل كفاءة ودون أي نقص أو قصور، بل تقوم بتشغيل هذا البرنامج على الدوام. وبواسطة هذه الشفرات تستطيع الحفاظ على خصائص نوعها وتكون حارسة له عند إصدار الأوامر لتحريك مختلف الفعاليات. أي أنه ما من تأثير خارجي يستطيع تغيير هذه الشفرات ولا اجتياز الحواجز والأسوار والموانع التي وضعتها هذه الشفرات. فلا تستطيع لا الطفرات ولا أي شيء آخر تغيير خط ذلك النوع.

صحيح نحن نعلم بأن مختلف الإشعاعات والمواد الكيميائية والظروف الأخرى للبيئة تُحدث بعض التغييرات في شفرات جينات الأحياء وفي برامجها. ولكن مثل هذه التغييرات الحاصلة في الشفرات الجينية -والتي يطلق عليها اسم الطفرات- لأي سبب من الأسباب لا تستطيع العمل على إنتاج نوع جديد من الأحياء، ولا تغيير أي كائن حي من نوع إلى نوع آخر.

ولكن على الرغم من كل هذا فإن الداروينيين الجدد يزعمون بأن هذه التغييرات تتلاحق وتتجمع مما يؤدي في النهاية إلى ظهور نوع جديد. ولكن أيكفي عمر أي فرد لحصول كل هذه التغييرات عنده؟ أي أيكفي عمر الفرد ليتحول إلى نوع آخر بهذه التغييرات؟ من الواضح أنه لا يكفي. ولكن لنفرض أنه يكفي، فهل هذه التغييرات تكون مفيدة ومقياس يكفي لتحويله إلى نوع آخر؟ هذا مستحيل. أي إن هذه التغييرات الحاصلة في الفرد تكون من النوع السليبي مثل تشوه الأعضاء أي من النوع الذي يضر بالنسل، وقد أيد علم الجينات هذا الأمر. كما لم يتم حصول العكس حتى الآن.

إن الأبحاث الأخيرة الجارية حول مرض السرطان تشير إلى أن التأثيرات الضارة مثل الإشعاعات وتلوث الجو، تعد من الأسباب المؤدية إلى تخريب الخلية وتشويهها مما يكون سبباً في حدوث مرض السرطان. ثم إنه لم تتم مشاهدة أي تغييرات من هذا النوع لا في الإنسان ولا في الأحياء المجهرية من العهود السابقة التي تستطيع الأبحاث العلمية الاستناد إليها. وقد أجرى رجال العلم -للرهنة على صحة هذا الزعم- تجارب على ذبابة الفاكهة "دروسوفيللا" سنوات عديدة، وحصلوا على أكثر من ٤٠٠ نوع مختلف من نسلها.^(١) ويعطينا اليرفسور "عاطف شنكون" المعلومات الآتية حول هذه التجارب فيقول:

(١) قام العلماء بتعريض أعداد كبيرة من هذه الذبابة إلى العديد من أنواع الإشعاعات والمواد الكيميائية والحرارة الشديدة لإحداث طفرات عليها وتغيير نوعها، فلم يحصلوا إلا على ذبابات مشوهة وعقيمة وفاقدة لبعض أعضائها (كأجنحتها وأرجلها)، ولم يحصلوا على أي تغيير مفيد لهذا الكائن الحي. (المترجم)

(ومع أننا لم نلاحظ حصول أي تغيرات جذرية في ماهيتها، إلا أنه تم حصول تغيرات عليها نتيجة تعرضها للطفرات. ولكن لم يتم الحصول على نسل جديد نتيجة تلاقحها وتناسلها).

والخلاصة أن التجارب العديدة التي أجريت على أكثر من ٤٠٠ من ذباب الفاكهة أظهرت أنه -مع حصول تغيرات طفيفة عليها- من المستحيل أن يتغير نوعها أو ماهيتها. فقد حدثت تغيرات غير ذات أهمية على ذبابات الفاكهة نتيجة تأثير الشروط والظروف البيئية عليها مثلما يحدث على الإنسان من تغيرات بسيطة من ناحية استمرار الجلد، أو ارتفاع ضغط الدم. وعندما تمت عمليات التناسل بين هذه الذبابات المتعرضة لهذه التغيرات لم يتم الحصول على نسل جديد، أي أصبحت هذه الذبابات عقيمة، كما أن تشوهات عديدة ظهرت عليها.

لقد أعطي للإنسان حق وصلاحيته التدخل في عمل الطبيعة بمقياس معين، لأنه خليفة الله في الأرض ومكلف بإعمارها واكتشاف العلوم وتطويرها واستخدامها في هذه السبيل، مما يوجب عليه مثل هذا التدخل. ولكن هذا التدخل لن يستطيع تغيير الحيوانات من نوع إلى آخر. أما في النباتات فيمكن -حسب القوانين التي وضعها الله تعالى في الطبيعة- بواسطة عملية التطعيم في الأشجار الملائمة للتطعيم الحصول على نوع آخر من الأشجار. ولكن يجب التنويه بأن هذا غير ممكن في جميع الأشجار، فأى شجرة كانت ملائمة للتطعيم حسب طبيعة خلقها فيمكن تحويلها إلى نوع آخر بالتطعيم. ولكن لا يوجد في عالم الحيوان تغيير بهذا المقياس. ولكن يستطيع الإنسان بعملية التلقيح، أي باستخدام مني جاموس مثلاً من نوع جيد لتحسين نسل جاموسة أدنى منه نوعية.

وخارج هذا النطاق فقد سمح الله بعملية التناسل والإنجاب بين الحصان والحمار. ولكن البغل الناتج من هذه العملية -التي تعد عملية استثنائية في

عالم الحيوان - يكون عقيماً. أي إن مثل عمليات التناسل التي تتم بين أجناس مختلفة من الحيوان تكون الذرية الناتجة عقيمة، فلا يمكن ظهور نوع جديد منها. ولم يلاحظ -خارج هذا الأمر- أن تراكمات للطفرات ضمن شريط زمني طويل يمكن أن تنتج نوعاً جديداً من الأحياء. ولم تنتج من المحاولات العديدة التي جرت على بعض أنواع الأحياء سوى فروقات طفيفة كقصر في السيقان، أو اختلاف في الألوان. ولكن كل نوع حافظ على نفسه وعلى خواصه وأصله، فبقي الذئب ذئباً وبقي الخروف خروفاً.

والتدخل الإنساني لا يقلب الذئب إلى خروف، ولا الخروف إلى ذئب. وهذا الأمر ليس صحيحاً وجارياً في مثل هذه الأحياء المعقدة التركيب فقط، بل لم تتم مشاهدة تغيرات ذات بال حتى في البكتريات التي هي أصغر الكائنات الحية. وقد لوحظ أن هذه البكتريا التي تتكاثر بالانقسام كل عشرين دقيقة بالرغم من كونها تصاب بالطفرة بعد ٦٠ ألف جيل من أجيالها فإنه لا يوجد أي فرق بينها وبين أجدادها من البكتريا التي عاشت قبل ٥٠٠ مليون سنة، ولا مع أجدادها من البكتريا التي عاشت قبل مليار سنة كما أثبت ذلك علم المتحجرات.

والمسألة الأخرى هي - كما ذكرنا ذلك باختصار من قبل - أن علماء المتحجرات يقولون بأنه لكي نقبل بحدوث التطور يجب العثور على الحلقات الوسطى والمراحل الانتقالية بين الأحياء. ولكن بعض الداروينيين لا يرون ضرورة لوجود هذه المراحل الانتقالية ويرون أن الكائن الحي يستطيع القفز فجأة إلى نوع أعلى، فيقولون بأن من الممكن مثلاً أن يخرج طائر من بيضة تعود لحيوان زاحف.

ويقوم علماء الجينات بالرد على هؤلاء، ويقولون باستحالة قيام أي كائن حي مثلاً بتبديل ١٠٠٠ صفة وخاصة مرة واحدة. يقول الدكتور "لوكومت دنوي Dr.Lecomte de nouy": (يحتاج الحصان إلى خمسة

ملايين سنة لكي يستطيع تبديل خمسة أظلافه بظلف واحد). لذا فإذا أخذنا هذه المسألة في ضوء هذا التكامل التدريجي فإن زعم حدوث مثل هذه الطفرة الفجائية ليس إلا سخفًا واضحاً. فإن قيل لنا بأنه تغير تدريجياً وعندما بلغ نقطة معينة تبدل فجأة، عند ذلك نقول لهم بأن من الضروري حدوث هذا التطور والتغير خطوة بخطوة. فمثلاً يجب لكي يتحول الحصان إلى كائن بظلف واحد وجود حصان بأربعة أظلاف، ثم حصان بثلاثة أظلاف ثم حصان بظلفين.

ولا شك أن التغير يجب ألا يقتصر على عدد الأظلاف، لأن الجسم عندما يقوم بفعالياته فإن كل جزء منه مرتبط بعلاقات وثيقة مع الأجزاء الأخرى. وحتى عندما يندمل جرح في الجسم يمكن ملاحظة اندماله بسهولة. لذا فلا يمكن عدم ملاحظة كل هذا التغير الكبير. والخلاصة أن من المستحيل أن يخرج طائر من بيضة زاحف. لأن تغيراً بقوة مئات من الطفرات سيؤدي إلى هلاك ذلك الكائن الحي في لحظة واحدة.

تحدث انقسامات سريعة وتكاثر سريع في الأحياء المجهرية. فمثلاً تنقسم بكتريا *Ascherichia coli* كل عشرين دقيقة وبشكل متعاقب. وتتناسل الذبابة الفاكهة ثلاثين مرة في السنة الواحدة. أي أن السنة الواحدة لهذه الذبابة تعادل مليون سنة من سنواتنا، فما يحصل لدى الإنسان من تغير طوال مليون سنة يجب أن يحصل لدى هذه الذبابة في سنة واحدة. فلو حصل تغير في النوع لدى هذه الذبابة في سنة واحدة قبلنا آنذاك أن مثل هذا التغير النوعي قد يحصل لدى الإنسان في مليون سنة. ولكن الحقائق المشاهدة هي على النقيض من هذا تماماً.

وهناك من علماء المتحجرات من يذكر أن البكتريا والطحالب الخضراء والزرقاء عاشت في العهد السلوري والبرمي وهي من العهود الجيولوجية القديمة. ويرد في بعض الكتب أن هذه البكتريات وجدت قبل ٣٠٠ مليون

سنة، وفي كتب أخرى أنها وجدت قبل ٥٠ مليون سنة، وأنها طوال خمسين أو ٣٠٠ مليون سنة لم تتغير وأن البكتريات الحالية تشبه تلك البكتريات السابقة تماماً.

وقد يعترض بعضهم علينا فيذكر بأن متحجرات الطحالب الخضراء والزرقاء قليلة جداً، وهذا يؤدي إلى تعذر البرهنة على تعرضها لأي تغيير أو تطور. ولكننا على أي حال نتكلم عن الكائنات الحية التي لها القابلية على سرعة التكاثُر مثل البكتريا. فهذه الكائنات لم تتغير ولم تتطور طوال مدة خمسين وربما طوال ثلاثمائة مليون سنة.

كما لم تتم مشاهدة أي تغيرات في الحيوانات في الحداثق الطبيعية التي أنشئت في مختلف أنحاء العالم وفي حداثق الحيوانات والتي عرضوا فيها هذه الحيوانات لمختلف الظروف الطبيعية. وهناك مختبرات عديدة تطبق فيها أبحاث ومحاولات لإحداث الطفرات، ولكن لم يتم الوصول حتى الآن إلى أي نتيجة. أما بعض الحوادث الجزئية التي ادعوا أنهم نجحوا فيها في هذا الصدد فترجع إلى الخصائص الفطرية الموجودة في تلك الأنواع. أي أن هذه الأنواع لها قابلية لظهور هذه التغيرات فيها. هذا مع العلم أن قانوناً - كالتطور - يدعي أنه هو الأساس في تفسير الكائنات الحية وفي تفسير الحياة لا يمكن أن يكون محدوداً في نطاق ضيق جداً وفي مشاهدات وتغيرات جزئية، بل يجب أن يكون شاملاً لجميع الأحياء.

لقد وضع الله تعالى استثناء لكل قانون عام في هذا الكون، لكي لا يتعلق الإنسان بهذه القوانين وينسى الفاعل الحقيقي وراءها الذي هو الله تعالى رب العالمين. وعلى الرغم من هذا فلم يتم العثور حتى الآن على حادثة تحول في هذا المستوى في الأبحاث الجارية في المختبرات.

يوجد في هذا الصدد حادثة الكائن الحي الذي يطلق عليه اسم Allopoliploidi والذي يوجد في جنسه نوعان مختلفان، حيث تمت

مضاعفة عدد الكروموزومات ثم تم إجراء عملية التناسل بينهما فظهر نوع هجين منهما. فمثلاً إن قمنا بمضاعفة عدد الكروموزومات في الكرنب والفجل ثم قمنا بعملية تلقيح بينهما حصلنا على نوع جديد من الفجل. ولكن هذا يحدث في عالم النباتات، وكلما ترقى الأحياء ووصلت إلى مستويات أعلى استحال ظهور هذه الأمور. لذا فلا يمكن العثور على أمثال هذا في عالم الحيوانات وفي عالم الإنسان.

القيام بمضاعفة عدد الكروموزومات، وكذلك القيام بعمليات التناسل بين الأنواع المختلفة يؤدي في الظروف الطبيعية إلى عقم الحيوان الناتج من هذا التناسل (كالبغل مثلاً). ونظراً لأن مثل هذا المخلوق لا تكون أمامه فرصة ليصبح أباً أو أمّاً لذا نقوم بمضاعفة عدد كروموزوماته إلى الضعف. وكما ذكرنا فإن هذا الأمر غير وارد في عالم الحيوان، وإن كان وارداً في عالم النباتات. إن عدد الكروموزومات في الإنسان يبلغ ٤٦ كروموزوماً. أي أن هذه الكروموزومات هي التي تعين الصفات البيولوجية للإنسان، وهي التي تعين ماهيته.

وعلى الرغم من هذا فعندما يتغير هذا العدد ويصبح ٤٥ أو ٤٧ أو ٤٨ كروموزوماً، فلا يظهر هناك نوع آخر من الأحياء، بل يظهر إنسان مشوه وغير طبيعي. أي إن الفرق في عدد الكروموزومات يؤدي إلى تشوهات جذرية. لذا فلو قمنا بمضاعفة عدد الكروموزومات عند الإنسان فلا نحصل على نوع آخر من المخلوقات، بل على طفل بشري ولكنه يموت قبل أو بعد الولادة ولا يعيش. أما عندما يكون التغيير في عدد الكروموزومات بمقياس لا يؤدي إلى الموت، فالنتيجة تكون ظهور العاهات والتشوهات والأمراض. لذا فإن التلاعب بعدد الكروموزومات في عالم الحيوان وفي عالم الإنسان لا يجلب سوى الكوارث. أي أن الطفرات - التي تعني تدخلاً في نظام D.N.A. للكائن الحي - تؤدي إلى نتائج ضارة وتأثيرات مميتة عند الأحياء. لذا لا

يمكن الحديث عن طفرات تؤدي إلى تغيرات كبيرة ومفيدة في الوقت نفسه.

وقبل إكمال هذا الموضوع يجب التطرق إلى أمر آخر، وهو زعم بعض التطوريين -ولاسيما في تركيا- بأن شفرات خريطة الجينات في الإنسان قد تم حلها. وهم يريدون استخدام هذا الأمر كدليل على التطور، بينما يذكر العلماء الحقيقيون بأنه من السابق لأوانه القول بحل شفرات خريطة الجينات في الإنسان. ففي مقابل الادعاء بأن نسبة معينة من الجينات متراسة، نرى هناك عدم اتفاق حول عدد الجينات الموجودة في الإنسان، فهم يعطون أرقاماً تتراوح بين ٢٨ ألفاً إلى ١٤٠ ألفاً من الجينات.

ويقول العلماء بأن رصّ نسبة من هذه الجينات لا يعني حل شفرات خريطة الجينات. كما يشيرون بأنه لا يمكن بهذا قراءة "كتاب الحياة". كما يذكرون بأن النجاح المتحقق حتى الآن في هذا الموضوع يساعد فقط في تشخيص بعض الأمراض الجينية. لأن معرفة شفرة جين من الجينات لا يعني معرفة البروتينات التي يقوم هذا الجين بإنتاجها في الجسم، ولا معرفة أي البروتينات ستأثر بهذا البروتين أو تؤثر فيه، فهذا الموضوع ليس واضحاً حتى الآن.

إن الخالق ذا الرحمة غير المحدودة كما وضع المعلومات الجينية بشكل مزدوج، كذلك جعل شفرات الأحماض الأمينية -من باب الأمن والاحتياط- أكثر من شفرة واحدة. وهذه المعلومات الجينية مثل لغة إن لم تُقرأ بشكل صحيح وتتم ترجمتها بإنتاج بروتين جديد فلا قيمة لها. لذا كان من الضروري تحول هذه المعلومات بشكل صحيح وبالمقدار الصحيح وفي الوقت المناسب إلى بروتينات، علاوة على ضرورة وجود هذه المعلومات من ناحية استمرار الحياة والصحة.

والسؤال المطروح هنا: من الذي يعطي الإذن لاستعمال بعض هذه المعلومات الجينية الموجودة في الكروموزومات -والتي يشكل كل منها

موسوعة معارف كاملة- ولا يسمح لبعضها الآخر؟ لقد دلت الأبحاث أن هناك بروتينات تملك خاصية وقابلية فتح معلومات معينة وقراءتها، وغلق معلومات أخرى ومنع قراءتها. وبعبارة أخرى إن الشفرات الجينية تحل رموزها وتقرأ من قبل مجموعة من البروتينات لاستعمالها في صنع البروتينات، حيث تقوم هذه البروتينات المصنوعة بتعيين متى وبأي شكل يجب أن تتم قراءة هذه المعلومات.

فيا ترى من أين تتلقى هذه البروتينات أوامرها، ومن الذي يوجهها في هذه الفعاليات التي يعدّ مجرد اكتشافها حتى من قبل الإنسان -الذي يعد أرقى الأحياء من ناحية الشعور والفكر والعلم- فتحاً كبيراً ونجاحاً متميزاً؟ وكيف تصل هذه البروتينات إلى وضع تستطيع فيه تدقيق البرنامج الجيني الذي أخذته من أجل إنتاج نفسها ثم السيطرة على هذه المعلومات فيما بعد؟ ونستطيع أن نشاهد برنامجاً غامضاً عند القيام بإنتاج نسل جديد. كما أن من المدهش جداً ما نراه من قابلية الحيوان على إصلاح الأعضاء الجريحة أو المقطوعة أو التالفة وتجديدها، وإن كانت هذه الأمور تجري تحت ستار من الإلفة.

فالخلايا الموجودة في الأعضاء المقطوعة أو التالفة كانت خلايا اعتيادية في الجسم، ولم تكن قد تميزت. فمثلاً عندما تُقطع رجل من أرجل الضفدع تبدو أن الخلايا نفسها -وكأنها تلقت أمراً سرياً من مصدر ما- تتميز وتقوم بتشكيل خلايا غضروفية وخلايا عظمية وخلايا عضلية والأنسجة الجلدية (Epitelyum) لكي تشكل منها ساقاً جديدة.

فهل يوجد تخطيط لبناء الأرجل في هذه الخلايا؟ هل هناك مثل هذا التخطيط تعرف منه هذه الخلايا أن الكائن الحي بحاجة إلى رجل فتقوم بصنعها وتنفيذ هذا المخطط؟ ولماذا لا تنشط هذه الخلايا إلا عندما يحتاج الجسم إلى مثل هذه الفعالية؟ وبما أنه يستحيل على الخلايا معرفة هذا، وبما

أنه لا يوجد في الجسم ولا في الطبيعة أي آلية أو مركز يقوم بتزويد الخلايا
بمثل هذه المعلومات والإيعاز إليها للقيام بهذه الفعاليات إذن فهناك من يعرف
جميع حاجات الجسم، وله القدرة على تلبيتها... إذن هناك من يعرف مكان
وزمان كل هذه الأعمال والفعاليات.

زعم شجرة النسب وشجرة الوجود

إن سيناريو شجرة النسب الذي أطلقه التطوريون وأصروا عليه باسم نظرياتهم متشابك جداً ومختلط. والاكتشافات الجديدة في علم البيولوجيا الجزيئية تعرض مشاكل ومطبات وألغازاً ومصاعب حمة أمام نظرية التطور، إلى درجة أن هذه النظرية حشرت تماماً في زاوية ضيقة. لأن "أشجار النسب" التي عملت باتخاذ مجموعات مختلفة من الجزينات أساساً أدت إلى ظهور نتائج مختلفة إلى درجة أنه لم يعد معلوماً من تطور ممن، ولم يعد في الإمكان الخروج من هذا المأزق ومن هذه الفوضى.

وعلى الرغم من هذا فلا يزال التطوريون يقولون: "عندما نتخذ مجموعات مختلفة من الحيوانات يمكن أن نحصل من مجاميع الجزينات البيولوجية المختلفة التي نتخذها أساساً أشجار نسب عديدة مختلفة". ولكنهم عندما يقومون بهذا يعترفون ضمناً بأنهم أخذوا نظرية التطور كحقيقة مُسلم بها منذ البداية، ثم رصّوا ما في أيديهم ورتبوه على هذا الأساس، ومن ثم رسموا أشجار نسب خيالية. كما أن زعم التطوريين بأن جذر الوجود شيء وجذعه شيء، وأغصانه وأثماره شيء آخر زعم خاطئ. لأن الأبحاث أظهرت بأن الجذر والجذع والأغصان والأوراق توجد معاً وتعيش معاً.

كان في المعهد الكمبري الكثير من الأحياء التي جعل التطوريون بعضها سلفاً وهدلاً للآخر... بينما نرى أنها كانت تعيش معاً وأنها ظهرت جميعاً إلى الوجود فجأة. كما أن من الحقائق الثابتة أن العديد من الأحياء البسيطة

التركيب عاشت معاً وفي العهد نفسه مع حيوانات معقدة التركيب. وهذا يعني أن أحياء - كان من المفروض أن تعيش أحفاد لها بعد ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جيل - عاشوا مع أحياء كان من المفروض ألا يعيشوا معها إلا بعد ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جيل. ويعني كذلك أن من الممكن أن تعيش الأحياء البدائية التي زعم أنها عاشت قبل مليارات السنين، جنباً إلى جنب مع الأحياء المعقدة التركيب التي خمنت من قبل أنها عاشت بعدها بمليارات السنين.

وعلاوة على هذا فقد ظهر العديد من الأحياء - بدءاً من الأحياء العديمة الفكوك ذات الحراشف إلى أسماك القرش من الأحياء التي تعيش بيننا حالياً - في العهد الديفوني فجأة، وقد استطاعت اجتياز ذرى العهود لتصل إلى أيامنا الحالية، حيث يستحيل على نظرية التطور تفسير هذا الأمر. فمثلاً نرى أن التطوريين يزعمون أن مجموعة Crossopterygi السمكية - التي تعد حسب نظرية التطور سلفاً للضفدع - قد انقرض نسلها قبل سبعين مليون سنة، بينما نعلم أن مجموعات كبيرة منها شوهدت في سواحل أفريقيا. كما ظهر للعيان أن الضفادع والزواحف عاشتا معاً في العهد الكربوني، وهذا ما لا يمكن فهمه من زاوية نظرية التطور، أي أن كلا هذين الأمرين يعدان ضربتين قاتلتين للفكر الذي يرى أن الزواحف تطورت من الضفادع.